أسلوب التورية وبلاغته في التعبير القرآني

د/الشيماء طارق صالح عبد العزيز

مدرس التفسير وعلوم القرآن
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات ببني سويف

ملخّص البحث

أسلوب التورية وبلاغته في التعبير القرآني.

د/الشيماء طارق صالح عبد العزيز

مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببني سويف

وقد **اشتمل البحث على:** تقديم، وأربعة مباحث، وخاتمة، تضمّن **التقديم** مقدمة، وأهمية موضوع البحث ودوافع اختياره، وإشكاليته، ومنهجيته، وأهم خطواته الإجرائية، وخطته.

وتضمّن **المبحث الأول** مفهوم التورية وما يتعلق به من: تعريف التورية لغة واصطلاحًا، وأنواعها، والفرق بينها وبين الاستخدام، والكناية، وعلاقتها بالمجاز. وتضمّن **المبحث الثاني** أهمية التورية ودورها في البلاغة العربية، **والثالث:** أثرها في فهم معاني القرآن الكريم، **والرابع:** مناهج المفسرين في التعامل مع التورية في القرآن الكريم.

وانتهى البحث إلى بعض النتائج والتوصيات صيغت في **الخاتمة**، ثم ذُيّل بفهرس **لأهم المصادر والمراجع.**

الكلمات المفتاحية: التورية– الإعجاز البلاغي– التعبير القرآني.

الباحثة: الشيماء طارق صالح عبد العزيز.

ABSTRACT

The style of pun and its eloquence in Quranic expression.

Dr. Al-Shimaa Tariq Saleh Abdel Aziz

Teacher of Interpretation and Quranic Sciences at the Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls in Beni Suef

The research included: an introduction, four sections, and a conclusion, the introduction included an introduction, the importance of the research topic, the motives for its selection, its problem, its methodology, its most important procedural steps, and its plan. The first section included the definition of puns language and terminology, types, and the difference between them and use, metonymy, and their relationship to metaphor. The second section included the importance of puns and their impact on Arabic rhetoric, the third: its impact on understanding the meanings of the Holy Qur'an, and the fourth: the methods of commentators in dealing with puns in the Holy Qur'an .The research concluded with some results and recommendations formulated in the conclusion, then the research was appended with an index of the most important sources and references.

Keywords: pun – rhetorical miracles – Quranic expression.

تقديم

مقدمة:

بسم الله الذي له الحجة البالغة، أحاط بعظمته الوجود، وشمل بعلمه وقدرته كل موجود، **الرحمن** الذي عمّ برحمته الموجودات، **الرحيم** الذي خصّ من شاء من عباده بنعيم الطاعات، ثم الصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم–؛ نبي الله وصفوته، وخيرته من بريته، الذي صدع بالرسالة، وأبلغ في الدلالة، أتمّ الناس خيراً وفضلاً، وأطيبهم فرعاً وأصلاً، ثم أمّا بعد...

فإن معجزة القرآن الكبرى هي بلاغته التي بلغت النهاية، وفصاحته التي تخللت الهداية، وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عن معارضته، وقصورهم عن بلوغ غايته، فى حسنه وبراعته، وكمال معانيه، وصفاء ألفاظه؛ لذا كان العلم بفنون البلاغة العربية أقربَ المسالكِ إلى فهم هذا الكتاب المعجِز، فقد تجاوز القرآن بفصاحة لفظه، وإحكام نظمه، ووفاء دلالته، وتعدد وجوه تناوله حدود اللغات البشرية، فالقرآن هو أسمى تجليات البلاغة العربية؛ إذ حوى بين دفّتيه من الأفانين البلاغية كالاستعارة، والكناية، والتشبيه، وبراعة الاستهلال، وغيرها ما لا يُدرك شأوه، ويُميط لثام حُسنه، سوى متبحّر في أعماق البلاغة العربية.

ولأن أحق ما صرفت إلى علمه العناية، وبلغت في معرفته الغاية، ما كان لله في العلم به رضى، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى، وكان أجمع ذلك لباغيه كتاب الله الذي لا ريب فيه، ولا يَتوصل إلى فهم معانيه، واستنباط مراميه سوى البليغ الفقيه، فذخائر البلاغة القرآنية أنفس ما يُقتنى، وأزاهره أبهج ما يُجتنى، وميدان البلاغة تجول فيه الأذهان، فتتفتق عن أزاهير العقل كمائمه، وتغوص في بحاره الخواطر، فتستخرج منها اللآلي والجواهر.

والمتفكّه في أدواح البلاغة يكاد يُذهَل من عُمق الدلالات التي تحملها الأساليب القرآنية على تنوعها، ومن تلك الأساليب (أسلوب التورية) الذي يُبرز جمالية التأثير الفنّي للفظ القرآني الذي يطوي في حناياه غرضًا يقف بعيدًا عن العبارة، لا يُدركه غير المتأمّل، وما لهذا البُعد الثاني للمعنى من أثر في محاكاة العقل والوجدان، فيجلي بذلك الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم جَلاءً مُشرقًا، ويعكس ما للقرآن من ظاهر أنيق، وباطن عميق. والتورية فن من أفانين (علم البديع) الذي لا تنحصر وظيفته في التحسين والتزيين، بل إن له في توجيه متشابه القرآن أثرًا لا ريب فيه.

ولأن القرآن العظيم أوسع من أن يضيق بأبحاث الباحثين، ولا يُحيط بوجوه إعجازه كائن من كان، نظرتُ إلى واحد من أساليبه البليغة، هو (أسلوب التورية)؛ لأنهل رشفة من زُلال روعته، وأنال نفحة من جلال هيبته، فأُجلي شيئًا من عظم سبكه، وعُمق دلالته.

فأستوهب من الله –عز وجل– توفيقًا قائدًا إلى الرشد، وقلبًا متقلّبًا مع الحق، ولسانًا ناطقًا بالصدق، وبصيرة مُلهمة إلى الصواب، واللّه من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

أهمية الموضوع ودوافع اختياره:

١ـ تكمن أهمية موضوع البحث في قيمة اللغة العربية، وأهمية إلمام المفسر بعلوم البلاغة الثلاثة (البيان، والمعاني، والبديع)، وما يتفرّع عنها من ألوان وأفانين، وأثرها البالغ في فهم معاني القرآن الكريم.

٢ـ إلقاء الضوء على (أسلوب التورية)، وأثره في إبراز وجه من وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، الذي يتجلَى في عظم السبك، وعُمق الدلالة.

٣ـ إبراز الدور الجوهري الذي يلعبه (أسلوب التورية) كمحسّن بديعي، وأداة بلاغية، في تفسير متشابهات القرآن الكريم.

٤ـ الاشتغال بالإعجاز البلاغي للقرآن الكريم درسًا وإبانةً.

٥ـ الإسهام في خدمة كتاب الله تعالى قدر الاستطاعة، والقيام ببعض الواجب نحوه؛ فإن خير ما صُرفت له الهمم، وشُحذت له العزائم هو كلام الله –عز وجل–.

أسئلة البحث: يُجيب هذا البحث عن الأسئلة التالية:

ما المراد بالتورية؟ وما أنواعها؟ وما الفرق بينها وبين الاستخدام، والكناية؟ وما علاقتها بالمجاز؟ وما أهميتها في البلاغة العربية؟ وهل لها من أثر في تفسير القرآن الكريم؟ وما مناهج المفسرين في تناولها، والتعامل معها؟

منهجية البحث:

يُعدّ المنهج الوصفي[١]، التحليلي[٢] للمباحث البلاغية في القرآن الكريم من أفضل المناهج في دراسة النصوص القرآنية، وأقدرها على إظهار أوجه الإعجاز البياني في القرآن الكريم؛ لذا قام البحث على هذه المناهج الثلاثة.

إجراءات البحث:

١ـ تعريف المصطلحات، والألفاظ الغريبة الوارد ذكرها في البحث.

---

(١) المنهج الوصفي: عبارة عن طريقة لوصف الموضوع المراد دراسته من خلال منهجية علمية صحيحة، وتصوير النتائج التي يتم التوصل إليها بصورة معبرة يمكن تفسيرها، أي أنه وصف دقيق وتفصيلي لظاهرة أو موضوع محدد على صورة نوعية أو كمية رقمية، بحيث يصف الظاهرة أو حجمها ودرجة ارتباطها مع الظاهرات المختلفة الأخرى. البحث العلمى أساسياته النظرية وممارسته العملية، المؤلف: رجاء وحيد دويدري، الناشر: دار الفكر المعاصر-بيروت-لبنان-دار الفكر-دمشق-سورية، الطبعة: الأولى - جمادى الآخرة ١٤٢١هـ- أيلول سبتمبر ٢٠٠٠م. ص ١٨٣.

(٢) المنهج التحليلي: هو منهج يقوم على تقسيم أو تجزئة الظواهر أو المشكلات البحثية إلى العناصر الأولية التي تُكَوِّنها؛ لتسهيل عملية الدراسة، وتقييم الحقائق والبيانات والمعلومات المتعلقة بالدراسة من ناحية تحليلية منطقية، ليتمكن الباحث من الحصول على نتائج، والإجابة عن الأسئلة التي يطرحها البحث. ينظر: البحث العلمي أساسياته النظرية وممارسته العملية ص ٢٥٧ بتصرف.

٢ـ إجراء مقارنات محدودة بين التورية وغيرها من الأساليب البلاغية لبيان الفارق.

٣ـ عزو الآيات القرآنية الواردة في البحث: وذلك بذكر اسم السورة، ثم رقم الآية.

٤ـ تخريج الأحاديث النبويَّة من أصول المصادر المعتمدة، مكتفيةً بذكر الكتاب، والباب، ورقم الحديث، ودرجته إجمالاً.

٥ـ عزو الأبيات الشعرية إلى قائليها، مع بيان البحور الشعرية، وتخريج الأبيات، وبيان ما خفي من ألفاظها، وموضع الشاهد منها.

٦ـ ترجمة الأعلام؛ لاسيما المجهولين، وتوثيق الأقوال والنُقول قدر الطاقة من مصادرها الأصلية، فإن لم أجد فالفرعية.

٧. التعبير في الحواشي السفلية بلفظ: (يُنظَر) عمَّا نُقل من مصدره معنىً لا نصًّا.

٨. الاعتماد على كتب التراث الأصلية، والمعتمدة لدى العلماء، وعدم التحول عنها إلى غيرها من الكتب إلا عندما لا أجد بغيتي فيها.

٩ـ ذكر أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث، وأهم المقترحات.

١٠ـ إعداد قائمة لفهرسة المراجع والموضوعات المذكورة في البحث.

خطة البحث:

يتكون هذا البحث من: تقديم، وأربعة مباحث، وخاتمة.

أمّا **التقديم** فيشتمل على: مقدمة، أهمية الموضوع ودوافع اختياره، أسئلة البحث، منهجية البحث، إجراءات البحث، وخطّة البحث.

المبحث الأول: مفهوم التورية وما يتعلق به. ويتضمن:

١ـ تعريف التورية لغة واصطلاحًا.

٢ـ أنواع التورية.

٣ـ الفرق بين التورية والاستخدام.

٤ـ الفرق بين التورية والكناية.

٥ـ علاقة التورية بالمجاز.

المبحث الثاني: أهمية التورية ودورها في البلاغة العربية.

المبحث الثالث: أثر التورية في فهم معاني القرآن الكريم.

المبحث الرابع: مناهج المفسرين في التعامل مع التورية في القرآن الكريم.

المبحث الأول

مفهوم التورية وما يتعلق به

١ـ تعريف التورية لغةً واصطلاحًا:

التورية في اللغة: مصدر ورَّى الشيء، إذا ستره وأخفاه، يقال: وريت الشيءَ وواريته تَوْرِيَةً، إذا سترته وأظهرت غيره[١]. قال أبو عبيد: ولا أراه مأخوذا إلا من: وراء الإنسان؛ لأنه إذا قال: وريته، فكأنه إنما جعله وراءه حيث لا يظهر.[٢]

وفي التنزيل العزيز: {فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا}[٣]، أي: ما سُتر وغُطِّي عنهما[٤]. ورُوي عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه كان قلما يريد غزوة يغزوها إلا وَرَّى بغيرها[٥]؛ أي: سترها وكنَّى عنها وأوهَم أنه يريد غيرها.

ـ وعليه فإن التورية من حيث أصلها اللغوي إنما تدل على الستر والإخفاء.

---

(١) لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ. (ورى) ٣٨٩/١٥.

(٢) تهذيب اللغة، المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م. (ورى) ٢١٨/١٥، ٢١٩.

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن= تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م. ١٧٨/٧.

(٥) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في صحيحه في كتاب الجهاد والسير، باب من أراد غزوة فورى بغيرها، ومن أحب الخروج يوم الخميس، من حديث كعب بن مالك -رضي الله عنه- ، ٤٨/٤ رقم ٢٩٤٨، ومسلم في صحيحه في كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، من حديث كعب بن مالك -رضي الله عنه-، ٢١٢٨/٤ رقم ٢٧٦٩.

التورية في الاصطلاح: انطلاقًا من الأصل اللغوي للفظ (التورية) اصطُلِح على أن المراد بتورية الكلام: كل ما يُفهَم منه معنى لا يدل عليه ظاهر لفظه، ويكون مفهومًا عند اللفظ به[1]. وذلك بإخفاء المعنى المراد خلف ستار معنى آخر يتبادر إلى الذهن عند التلفُّظ به.

والتورية باب جليل القدر في البلاغة العربية؛ لذا تناولها علماء البديع بالدرس والتمحيص، وعالجوا مواردها في فنون الكلام العربي من الشعر، والنثر، والخطابة، وعموم الكلام، وأمعنوا في دراسة مواطن ورودها في كلام الله –عز وجل–، وحديث رسوله –صلى الله عليه وسلم–؛ لما لهذا الفن البلاغي من أثر بالغ في النفس الإنسانية التي جُبلت على تذوق ألوان البيان اللغوي، واستعذاب أفانينه، والتعمّق في فهم مراميه.

وقد عَرَّف البلاغيون التورية بأنَّها: ذِكر المتكلم لفظًا ذا معنيين، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، وهو يريد المعنى البعيد، فيوري عنه بالمعنى القريب؛ ليتوهم السامع للوهلة الأولى أنه يريده، وهو ليس بمراد.[2]

٢ـ أنواع التورية: تتنوّع التورية إلى أنواعٍ أربعة[3]:

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المؤلف: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (المتوفى: ٧٤٥هـ)، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ. ٣٦/٣.

(٢)علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»، المؤلف: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ). ص ٣٢٧. البلاغة العربية، المؤلف: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ)، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م. ٣٧٣/٢. بتصرف يسير.

(٣) ينظر: خزانة الأدب ٢٤٣/٢: ٢٥١، علم البديع، المؤلف: عبد العزيز عتيق (المتوفى: ١٣٩٦ هـ)، الناشر: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان. ص ١٢٦: ١٣٢، علوم البلاغة «البديع والبيان والمعاني»، المؤلف: الدكتور محمد أحمد قاسم، الدكتور محيي الدين ديب، الناشر: المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس – لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ م. ص ٧٧: ٨٢.

النوع الأول: التورية المجرّدة: وهي التي لم يُذكَر فيها لازم من لوازم المورّى به، وهو المعنى القريب، ولا من لوازم المورّى عنه، وهو المعنى البعيد.

مثال: قول الله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[١]، فالاستواء في الآية الكريمة له معنيان: أحدهما الاستقرار في المكان، وهو المعنى القريب المورى به، والثاني الاستيلاء والملك، وهو المعنى البعيد المورى عنه وهو المراد لا سواه؛ لأن الله سبحانه منزه عن المعنى الأول، ودليل إرادة المعنى البعيد وهو الاستيلاء والمُلك هو قول الله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}[٢]، ولا شك أن الاستقرار في المكان من صفات المخلوقات، وقد تنزّه الله –عز وجل– عن مشابهة شيء من خلقه، فمُحال أن يُراد المعنى الظاهر ولا بدّ من التأويل إلى معنى يليق بجلال الله –عز وجل–، قال أبو بكر الباقلاني: [يجب أن يُعلَم أن كل ما يدل على الحدوث، أو على سمة النقص، فالرب تعالى يتقدس عنه][٣].

وقال الرازي في "مفاتيح الغيب": [دلّ الدليل على أنه يمتنع أن يكون الإله في المكان، فعرفنا أنه ليس مراد الله تعالى من هذه الآية ما أشعر به ظاهرها][٤].

فدلّ ذلك على إرادة المعنى المورَّى عنه، ولم يُذكَر شيء من لوازم المعنى القريب، ولا البعيد، فالتورية مجردة بهذا الاعتبار.

النوع الثاني: التورية المرشّحة: وهي التي يُذكَر فيها لازم المورّى به، وهو المعنى القريب، وسميت مرشّحة لتقويتها بذكر لازم المورّى به.

---

(١) سورة طه الآية ٥.

(٢) سورة الشورى الآية ١١.

(٣) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، لإمام المتكلمين القاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاني البصري (ت. ٤٠٣هـ)، تحقيق وتعليق وتقديم: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الثانية: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص ٣٩.

(٤) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠هـ. ١٤٦/٧.

وهذا النوع ينقسم إلى قسمين: **أحدهما:** ما ذكر لازمه قبل لفظ التورية، **ومثاله:** قوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ}[1]، فإن قوله: {بِأَيْدٍ} يحتمل معنيين: اليد الجارحة، وهذا هو المعنى القريب المورّى به، وقد ذكر من لوازمه على جهة الترشيح «البنيان»، ويحتمل: القوة وعظمة الخالق، وهذا هو المعنى البعيد المورّى عنه، وهو المراد لأن الله سبحانه منزه عن المعنى الأول. وقد قيل إنَّ أبلغ أنواع التورية: ما كان معها قرينة تصرف الذهن للمعنى القريب غير المقصود.

والقسم الثاني: ما ذكر لازم المورى به بعد لفظ التورية، **ومن أمثلته:** قول الشاعر:

مذ همت من وجدي في خالها ... ولم أصل منه إلى اللثم
قالت: قفوا واستمعوا ما جرى ... خالي قد هام به عمي!**[2]**

وقد ورّى الشاعر في البيتين بلفظ (الخال) عن معنيين: أحدهما خال النسب وهو أخو الأم، وهو المعنى القريب المورّى به، وقد ذكر لازمه بعد لفظ التورية على جهة الترشيح وهو (العم)، والمعنى الآخر: هو الشامة السوداء التي تظهر غالبا في الوجه وتكون علامة حسن، وهذا هو المعنى البعيد الخفيّ المورّى عنه.

النوع الثالث: التورية المبيّنة: وهي ما ذكر فيها لازم المورى عنه، وتنقسم إلى قسمين: **الأول:** هو ما ذكر لازمه قبل لفظ التورية، **ومثاله:** قول الشاعر:

ووراء تسدية الوشاح ملية ... بالحسن تملح في القلوب وتعذب[3]

---

(١) سورة الذاريات الآية ٤٧.
(٢) البيتان من (السريع)، وتفعيلته: مستفعلن مستفعلن مفعولات ... مستفعلن مستفعلن مفعولات، وقد أوردهما الحموي في خزانة الأدب ٢٤٦/٢.
(٣) البيت من (الكامل)، وتفعيلته: متفاعلن متفاعلن متفاعلن ... متفاعلن متفاعلن متفاعلن، وهو للبحتري، في ديوانه ٨٧/١، وفي خزانة الأدب ٤٢/٢. ملية بالحسن: أي كثيرة الحسن.

الشاهد في البيت في قوله: «تملح» فإنه يحتمل أن يكون من الملوحة التي هي ضد العذوبة، وهذا هو المعنى القريب المورّى به وغير المراد، ويحتمل أن يكون من الملاحة وهي الحسن، وهذا هو المعنى البعيد المورّى عنه وهو المراد، وقد تقدم من لوازمه على التبيين قوله: «مليّة بالحسن».

والقسم الثاني: ما ذكر فيه لازم المورى عنه بعد لفظ التورية، **ومثاله:** قول الشاعر:

أرى ذنبَ السّرحان في الأفق طالعا ... فهل ممكن أن الغزالة تطلع؟[1]

البيت فيه توريتان، إحداهما في قوله: «ذَنَب السَرحان» فإنه يحتمل أول ضوء النهار، وهذا هو المعنى البعيد المورّى عنه، وهو مراد الشاعر، وقد بيّنه بذكر لازمه بعده بقوله: «طالعا»، ويحتمل ذَنَب الحيوان المعروف وهو الذئب أو الأسد، وهذا هو المعنى القريب المورّى به، والتورية الثانية في قوله: «الغزالة» فإنه يحتمل أن يكون المراد بها الشمس، وهذا هو المعنى البعيد المورّى عنه، وهو مقصود الشاعر، وقد بيّنه بذكر لازمه بعده بقوله: «تطلع»، ويحتمل أن يكون المراد بها الغزالة الوحشية المعروفة، وهذا هو المعنى القريب المورّى به والذي لم يقصده الشاعر.

النوع الرابع: التورية المهيأة: هي التي لا تقع فيها التورية ولا تتهيأ إلا باللفظ الذي قبلها، أو باللفظ الذي بعدها، أو تكون التورية في لفظين لولا كل منهما لما تهيأت في الآخر. وهي ثلاثة أقسام: **القسم الأول:** هو الذي تتهيأ فيه التورية باللفظ الذي قبلها، **ومثاله:** قول الشاعر:

وسَيرك فينا سِيرة عُمَرِية ... روّحت عن قلب وأفرجت عن كرب
وأظهرت فينا من سَمِيِّك سنّة ... فأظهرت ذاك الفرضَ من ذلك الندب[1]

---

[1] البيت من (الطويل)، لم أقف على قائله فيما اطلعت عليه من مصادر. انظر: خزانة الأدب ٢٤٧/٢.

الشاهد في البيتين في قوله: «الفرض والندب» وهما يحتملان أن يكونا من الأحكام الشرعية، وهذا هو المعنى القريب المورّى به، ويحتمل أن يكون الفرض بمعنى العطاء، والندب صفة الرجل السريع في قضاء الحوائج، وهذا هو المعنى البعيد المورّى عنه، وقد تهيأت التورية بذكر «السنّة» والتي لولاها ما فُهم من الفرض والندب الحكمان الشرعيان اللذان صحت بهما التورية.

والقسم الثاني: هو الذي تتهيأ فيه التورية بلفظ بعد لفظ التورية. **ومثاله:** قول الشاعر:

لولا التطير بالخلاف وأنهم ... قالوا: مريض لا يعود مريضا
لقضيت نحبي في جنابك خدمة ... لأكون مندوبا قضى مفروضا[٢]

التورية في البيتين في قوله: «مندوبًا» فإنه يحتمل الميت الذي يُبكَى عليه، وهذا هو المعنى البعيد المورّى عنه وهو المراد، ويحتمل أن يكون أحد الأحكام الشرعية، وهو المعنى القريب المورى به. ولولا قوله: «مفروضًا» بعد لفظ التورية لما انتبه السامع لمعنى المندوب، ولكنه لما ذكره تهيّأت التورية بذكره.

والقسم الثالث: هو الذي تقع التورية فيه في لفظين لولا كل منهما لما تهيّأت التورية في الآخر. **ومثاله:** قول الشاعر:

أيها المنكح الثريا سهيلا ... عمرك الله كيف يلتقيان؟
هي شامية إذا ما استقلت ... وسهيل إذا استقل يماني[٣]

---

[١] البيتان من (الطويل)، وتفعيلته: فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن ... فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن. وهو لابن سناء الملك، يمدح الملك المظفّر صاحب حماة. روحت عن قلب: أي فرحه من بعد حزن. الكرب: الشدة والهم. خزانة الأدب ٢٤٨/٢.

[٢] البيتان من (الكامل) لابن الربيع، في عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، المؤلف: أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي (المتوفى: ٧٧٣ هـ)، المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م. ٢٤٥/٢. خزانة الأدب ٢٤٨/٢.

[٣] البيتان من (الخفيف)، وتفعيلته: فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن ... فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن، وهو لعمر بن أبي ربيعة. وسبب نظم البيتين أن سهيلا المذكور تزوج الثريا

فالتورية في قوله: «الثريا وسهيل»، فإن «الثريا» يحتمل أن يُراد بها بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه وهو المراد، ويحتمل أن يكون أراد بها نجم الثريا، وهذا هو المعنى القريب المورى به، و«سهيل» يحتمل أن يكون سهيل بن عبد الرحمن بن عوف، وقيل كان رجلا مشهورا من اليمن، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه، ويحتمل أن يكون النجم المعروف بسهيل، وهذا هو المعنى القريب المورى به، ولولا ذكر «الثريا» التي هي النجم لم يتنبه السامع «لسهيل». وكل واحد منهما صالح للتورية.

٣ـ الفرق بين التورية والاستخدام:

الاستخدام باب من أبواب البلاغة العربية كالتورية، وهو أن يأتي المتكلم بلفظ مشترك[١] له معنيان، ثم يأتي بلفظين آخرين يتوسط اللفظ ذو المعنيين بينهما، ثم يُعيد عليه ضميرًا يُريد به المعنى الآخر، أو يُعيد عليه ضميرين يُريد بأحدهما أحد المعنيين، وبالآخر المعنى الآخر؛ بحيث يستخدم كل لفظ منهما لمعنى من معانى ذلك اللفظ المشترك.[٢]

المذكورة، وكان بينهما بون شاسع فالثريا مشهورة في زمانها بالجمال وسهيل مشهور بالعكس. وهذا مراد الناظم بقوله: «كيف يلتقيان؟»، كما أنها شامية الدار وسهيل يماني. انظر: علم البديع ص ١٣١.

[١] عرَّف الأصوليون اللفظ المشترك بأنه: اللفظُ الواحدُ الدالُّ على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: فؤاد علي منصور، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م. ٢٩٢/١.

[٢] نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤلف: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ)، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ. ١٤٣/٧.

ومن أمثلة الاستخدام: قول الله تعالى: {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ}[١]، فلفظ: {كِتَابٌ} يحتمل معنيين: الأمد المحتوم، والكتاب المكتوب، وقد توسطت بين لفظتي: {أَجَلٍ} ، {يَمْحُو} في قوله تعالى في الآية التالية لها: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ}[٢]، فاستخدمت {أَجَلٍ} أحد مفهوميها وهو الأمد، واستخدمت {يَمْحُو} للمفهوم الآخر، وهو المكتوب.[٣]

وذهب السيوطي إلى أن الاستخدام والتورية هما أشرف أنواع البديع، وعدّهما سواءً في الفضل، وذكر تفضيل الاستخدام على التورية عند البعض.[٤]

وربما التبس الاستخدام بالتورية؛ وذلك لافتقار كل منهما إلى لفظ ذي معنيين، غير أنه في التورية يُقصد أحد المعنيين وهو المعنى البعيد، ويُهمل الآخر وهو القريب أو الظاهر، بينما في الاستخدام يُقصد المعنيان على حد سواء.[٥]

وقد نقل الحموي عن الصفدي، قوله: [المشترك، إذا لزم استعماله في مفهوميه معًا، فهو الاستخدام، وإن لزم في أحد مفهوميه في الظاهر، مع لمح الآخر في الباطن، فهو التورية].[٦]

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٨.
(٢) سورة الرعد الآية ٣٩.
(٣) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، المؤلف: عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (المتوفى: ٦٥٤هـ)، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي. ص ٢٧٦.
(٤) في الإتقان في علوم القرآن ٢٨٧/٣.
(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن، المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه. ٤٤٦/٣.
(٦) في خزانة الأدب ١١٩/١.

٤ـ الفرق بين التورية والكناية:

الكناية لون من ألوان البيان البلاغي، وهي عبارة عن لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، مع جواز إرادة المعنى الحقيقي[١]، وذلك بأن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة، ويأتى بلفظ آخر يساويه في اللزوم، فيومىء به إليه، ويجعله دليلا عليه[٢]. وذكر السيوطي أن الكناية أبلغ من التصريح.[٣]

مثال الكناية: قول الله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}[٤]؛ حيث كنَّى بالنفس الواحدة عن آدم –عليه السلام–، وعلّة التكنية في هذا الموضع هي التنبيه على عظم قدرة الله –عز وجل– في خلق البشرية جمعاء من أصل واحد، وتقرير المساواة بينهم.[٥]

والعلاقة بين التورية والكناية واضحة، وهي أن كليهما لفظ له معنيان والمراد أحدهما، إلا أن المعنيين في التورية يُفهمان من اللفظ دون وساطة من أحدهما لفهم الآخر، أما في الكناية فإن المعنى الثاني يكون لازمًا للمعنى الأول، وردفًا له[٦]، كما أن قرينة الكناية ينبغي أن تكون ظاهرة لا خفاء فيها ولا غموض، بينما قرينة التورية شرطها أن تكون خفية غير ظاهرة.[٧]

ومذهب أكثر العلماء التعبير عن التورية بالتعريض، وقد فرّق الزمخشري بين الكناية والتعريض بأن الكناية ذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، والتعريض

---

(١) عروس الأفراح ٢٠٦/٢.
(٢) الطراز ١٨٦/١، ١٨٧. بتصرف.
(٣) الإتقان ١٥٩/٣.
(٤) سورة الأعراف الآية ١٨٩.
(٥) يُنظر: الإتقان في علوم القرآن ١٥٩/٣.
(٦) أي: مرادفًا له.
(٧) يُنظر: البلاغة البيان والبديع، مادة دراسية، كود المادة: LARB4093، المرحلة: بكالوريوس، المؤلف: مناهج جامعة المدينة العالمية، الناشر: جامعة المدينة العالمية. ص ٤٤٤.

أن تذكر شيئا تدل به على شيء لم تذكره؛ حيث قال: [الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، والتعريض أن تذكر شيئا تدل به على شيء لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك، فكأنه أمال الكلام إلى عرض يدل على المقصود، وعرض الشيء بالضم ناصيته من أي وجه جئته].[١]

ونحا بعض العلماء إلى ترادُف الكناية والتعريض في بعض الأحيان، كشمس الدين الكرماني؛ حين قال: [التَّعريضُ قد يكونُ على سبيل الكناية، وقد لا يكون، والكنايةُ قد تكون على سبيل التَّعريض، وقد لا تكون؛ فَكلٌّ منهما أعمُّ من الآخر بوجه][٢]، وعلّل ذلك السعد التفتازاني؛ حيث قال: [الكناية إذا كانت عرضية مسوقة لأجل موصوف غير مذكور كان المناسب أن يطلق عليها اسم التعريض، فقال عرضت لفلان وعرضت بفلان، إذا قلت قولا وأنت تعنيه، فكأنك أشرت إلى جانب وتريد جانبا آخر، ومنه المعاريض في الكلام، وهي التورية بالشيء عن الشيء].[٣]

٥ـ علاقة التورية بالمجاز:

المجاز هو لفظ يُستعمل في غير ما وُضع له، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي[٤]، كقول الله تعالى: {وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا}[١]، أي: ينزّل

---

(١) الكشاف ٢٨٢/١، ٢٨٣، ونقله عنه السيوطي في الإتقان ١٦٣/٣.

(٢) تحقيق الفوائد الغياثية، المؤلف: محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرماني (المتوفى:٧٨٦هـ)، تحقيق ودراسة: د. علي بن دخيل الله بن عجيان العوفي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ. ٧٨٣/٢.

(٣) الجدول في إعراب القرآن الكريم، المؤلف: محمود بن عبد الرحيم صافي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، الناشر: دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ. ١٨٩/٩.

(٤) مفتاح العلوم، المؤلف: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: ٦٢٦هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور،

لكم من السماء مطرًا يكون سببًا في الرزق، فهذا مجاز مرسل[٢]علاقته المسببية[٣].[٤]

وكذلك التورية؛ حيث تقوم على لفظ له معنيان أحدهما مراد، والآخر ليس مرادًا، وبهذا الاعتبار تتفق التورية مع المجاز؛ فكلاهما يدل على لفظ يُستعمل في غير معناه الحقيقي، فالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن عند سماع اللفظ غير مراد، والمعنى الآخر الذي لا يتبادر إلى الذهن، ويحتاج إلى تأمُّل وتفكُّر هو المعنى المراد، وهذا القدر يتحقق في التورية كما يتحقق في المجاز.

قال عصام الدين الحنفي في كتابه (الأطول): [في المجاز تنصب القرينة على عدم إرادة المعنى الحقيقي، وفي التعريض تريد الحقيقة للانتقال إلى المعنى التعريضي من غير استعمال اللفظ فيه؛ لأنه لا يكون التلفظ به من غير إرادة معنى باللفظ، إلا أن المعنى التعريضي يصرف النفس بالكلية عن الالتفات إلى ما أريد به، إلى الالتفات إلى ما هو في عرض اللفظ].[٥]

الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م. ٣٥٩/١.

(١) سورة غافر الآية ١٣.

(٢) المجاز المرسل: هو اللفظ، أو العبارة المستعملة قصداً في غير معناها الأصلي لملاحظة علاقة غير المشابهة، مع قرينة دالّة على عدم إرادة المعنى الوضعي. وهو إمَّا مفرد: كالآية المذكورة؛ حيث وقع في كلمة واحدة هي: (رزقًا)، وقد يكون مركبًا: نحو قولك: نحو: كُتِبَ اسمي بين الناجحين، والغرض منه هاهنا: إظهار السرور. يُنظر: جواهر البلاغة ٢٥٢/١، ٢٥٣، ٢٧٤.

(٣) المسببية: هي أن يكون المنقولُ عنه مسبباً، وأثراً لشيء آخر وذلك فيما إذا ذكر لفظ المسبب، وأريد منه السبب.

(٤) يُنظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت. ٢٥٣/١.

(٥) الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، المؤلف: إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي (ت: ٩٤٣هـ)، حققه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. ٣٦٠/٢.

كما أن المجاز والتورية لا بد فيهما من قرينة[١] تبين المراد، وهو المعنى المجازي في المجاز، والمعنى البعيد في التورية، إلا أن قرينة التورية لا بد أن تكون خفية وغير واضحة[٢]، خلافًا للمجاز الذي ينبغي أن تكون قرينته واضحة ظاهرة لا خفاءَ فيها ولا غموض؛ لتمنع من إرادة المعنى الحقيقي للفظ.

وهناك فرق أكثر وضوحًا بين التورية والمجاز: ذلك أن كل واحد من المعنيين في التورية يُفهم من اللفظ من غير احتياج لعلاقة بينهما، أما في المجاز فلا بد من علاقة بين المعنى المجازي والمعنى الحقيقي، وهي: السبب الذي يوجب انتقال الذهن من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي.[٣]

كما أن المعنيين الدال عليهما اللفظ في التورية قد يكونان حقيقيين، ويكون اللفظ الدال عليهما مشتركًا بينهما مع تفاوت السامع في إدراك المعنيين، وقد يكونان مختلفين؛ الأول حقيقة، والثاني مجاز، وعليه فإن التورية قد تكون حقيقة، أو مجازًا.[٤]

---

(١) القرينة: هي الأمر الذي يصرف الذهن عن المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي، وهي إمَّا وهي إما قرينة عقلية أي حالية نحو: «أقبل بحر» والسامع يرى رجلا، وإما قرينة لفظية نحو: «رأيت بحرا يعظ الناس من فوق المنبر» فعبارة «يعظ الناس من فوق المنبر» قرينة لفظية، تدل على أن لفظة «بحر» استعملت استعمالا مجازيا وتمنع في الوقت ذاته من إرادة المعنى الحقيقي لهذه اللفظة. علم البيان، المؤلف: عبد العزيز عتيق (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الناشر: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: بدون، عام النشر: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٢م. ص ١٥٦، ١٥٧.

(٢) يُنظر: المنهاج الواضح للبلاغة، المؤلف: حامد عونى، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث. ١٦٦/١.

(٣) يُنظر: الزيادة والإحسان في علوم القرآن، المؤلف: محمد بن أحمد بن سعيد الحنفي المكيّ، شمس الدين، المعروف كوالده بعقيلة (المتوفى: ١١٥٠هـ)، المحقق: أصل هذا الكتاب مجموعة رسائل جامعية ماجستير للأساتذة الباحثين: (محمد صفاء حقي، وفهد علي العندس، وإبراهيم محمد، المحمود، ومصلح عبد الكريم السامدي، خالد عبد الكريم اللاحم).، الناشر: مركز البحوث والدراسات جامعة الشارقة الإمارات، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ. ٤٣٦/٥.

(٤) يُنظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، دار النشر:

المبحث الثاني

أهمية التورية ودورها في البلاغة العربية

قَسَّم البلاغيون (علم البلاغة)[١]لاتساعه، وكثرة موضوعاته إلى ثلاثة علوم، هي: علم المعاني[٢]، وعلم البيان[٣]، وعلم البديع[٤]، ثم عمدوا إلى علم البديع فقسّموه إلى: محسّنات بديعية لفظية، ومحسّنات معنوية، وعدُّوا (التورية) من المحسنات المعنوية؛ لأن موضوعها هو المعنى لا اللفظ.

وقد أطلق علماء البلاغة على هذا الفن من فنون الكلام: (التورية)؛ لما فيه من إخفاء المعنى المقصود وهو المعنى البعيد للفظ، وتوريته خلف ستار معنى آخر قريب غير مقصود، كما أطلقوا عليه (الإيهام أو التخييل)؛ لما يحدث للسامع من توهُّم إرادة المعنى القريب وهو في الحقيقة غير مُراد، وسُمِّي (التوجيه)؛ لما فيه من توجيه ذهن السامع إلى المعنى القريب دون البعيد، كما سُمّي (التخيير)؛ لاحتمال اللفظ معنيين يتخيّر السامع أقربهما إليه. لكن إطلاق (التورية) هو الأشهر، والأكثر مطابقة للمُسَمَّى.[٥]

دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. ٢٨٣/١. ويُنظر أيضًا: البلاغة البيان والبديع ص ٤٤٢، ٤٤٣.

(١) بلاغة الكلام: هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته. وعلم البلاغة: هو علم يهدف إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، وإلى تمييز الكلام الفصيح من غيره. الإيضاح في علوم البلاغة، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: ٧٣٩هـ)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة. ٤١/١، ٤٩/١.

(٢) هو علم يعرف به أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال. الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ٥٢/١.

(٣) هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد، بطرق مختلفة، فى وضوح الدّلالة عليه. عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي ٥/٢.

(٤) هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية المطابقة، ووضوح الدّلالة. عروس الأفراح ٢٢٤/٢.

(٥) ينظر: خزانة الأدب وغاية الأرب، المؤلف: ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري (المتوفى: ٨٣٧هـ)، المحقق: عصام شقيو، الناشر: دار

وباب التورية من أَجَلّ أبواب علم البديع، فهو أسلوب من أروع وأهم الأساليب البلاغية، وأعمقها، وتكمن أهمية هذه الظاهرة الأسلوبية في قُدرتها على إثارة الذهن، واليقظة، وجذب انتباه المُتَلَقِّي، والتعبير عن أكثر من معنى بلفظ موجز، وهو بلا شك مقصد من أسمى مقاصد البلاغة وأثمنها؛ لذا أولى علماء البلاغة عناية بالغة بدراسة هذا الباب، والتدقيق في معانيه ومراميه؛ للوقوف على أروع فنون الكلام العربي، وإبرازها من خلال هذا الأسلوب البلاغي البديع.

قال الصفدي: [من البديع ما هو نادر الوقوع، ملحق بالمستحيل الممنوع، وهو نوع التورية والاستخدام، فإنه نوع تقف الأفهام حسرى دون غايته عن مرامي المرام].(١)

وقال الحموي: [إن التورية من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة، وسحرها ينفث في القلوب، ويفتح بها أبواب عطف ومحبة، وما أبرز شمسها من غيوم النقد إلا كل ضامر مهزول، ولا أحرز قصبات سبقها من المتأخرين غير الفحول].(٢)

وقد كانت التورية تجري على لسان العربي القديم –المفطور على الفصاحة– بسليقته، وتأتي على سجيته كلما أراد أن يتفنَّن في الخطاب، أو يقصد إلى توجيه المخاطَب إلى معنى أخفاه خلف ستار لفظ يحتمل معنيين، فيعمد إلى جُملة موجزة تكفيه وتحقق مقصده، ولا يقدر على هذا الفن غير الحاذق البليغ، فهو كما قيل: [لا يفرَع هضبته فارع(٣)، ولا يقرع بابه قارع، إلا من تنحو

ومكتبة الهلال-بيروت، دار البحار-بيروت، الطبعة: الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م. ٤٥/٢. علوم البلاغة «البديع والبيان والمعاني»، المؤلف: الدكتور محمد أحمد قاسم، الدكتور محيي الدين ديب، ص ٧٦.

(١) فض الختام عن التورية والاستخدام في علم البديع، المؤلف: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، المتوفى سنة ٧٦٤هـ، دراسة وتحقيق: محمد عايش، الناشر: أروقة- سلطنة عمان- ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م. ديباجة الكتاب. ص ٤١.

(٢) خزانة الأدب ٤٠/٢.

(٣) فَرَع الهضبة: علاها. لسان العرب (فرع) ٢٤٧/٨.

البلاغة نحوه في الخطاب، وتجري ريحها بأمره رخاء حيث أصاب].[1]

ولا شك أن الغموض هو سرّ جمال هذا الأسلوب وتميّزه، فضلًا عن قدرته على إيقاظ عقل السامع، وإثارة ذهنه للتعمُّق في البحث عمَّا خفي من المعاني خلف ستار الظاهر، ومن أبرز خصائص هذا الأسلوب البلاغي أنه يمكّن القائل به من الإفصاح عن معانٍ يخشى عواقبها بأسلوب لا يفهمه غير فئة معينة في سياق معين، نائيًا بنفسه عن الكذب؛ لذا ضمَّنه العربي في كثير من كلامه ونظمه ونثره، لاسيما في الشعر الذي يُعدّ ديوان العرب، ومرآة ثقافتهم، وقد أضفت عليه التورية جاذبيةً وعُمقًا، وبرزت في فن الهجاء أكثر من غيره من فنون الشعر العربي؛ فالكلام الذي يحتمل معنيين يمكِّن الشاعر من إخفاء المعنى المراد عن بعض السامعين دون بعض، فلا يدركه غير المتيقّظ الفَطِن، فيبلغ بذلك غرضه في الهجاء بما لا يؤخذ عليه. من ذلك قول أحد الشعراء[2] في كاتب يُدعى (ابن أفلح) كان شديد السواد:

هذا ابن أفلح كاتب ... متفرّد بصفاته

أقلامه من غيره ... ودواته من ذاته[3]

حيث ورَّى الشاعر في هذين البيتين عن سواد بشرة الكاتب بسواد دواة الكتابة.

وقد اعتنى الشعراء والأدباء بأسلوب التورية على مرّ العصور وضمّنوه في أشعارهم، وكتاباتهم، غير أنه برز في أشعار المتأخرين لوقوفهم على أسرار

---

(١) خزانة الأدب ٤٠/٢.

(٢) هو جعفر بن علي بن دواس، أبو طاهر الكتامي المعروف بقمر الدولة، من أهل مصر؛ نشأ بطرابلس الشام، وكان شاعراً رشيق الألفاظ عذب الإيراد لطيف المعاني، قدم بغداد وأقام بها مدة في خدمة قسيم الدولة البرسقي، وكان نديماً له، وتوفي بعد الخمسمائة. انظر ترجمته في: فوات الوفيات، المؤلف: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (المتوفى: ٧٦٤هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٧٣م. ٢٨٧/١.

(٣) ذُكر البيتان في: تاريخ الأدب العربي، المؤلف: الدكتور شوقي ضيف، الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة: الأولى، ١٩٦٠ - ١٩٩٥ م. ٣٦٨/٧.

بلاغة هذه الصنعة البديعية، وتذوقها في أشعار من سبقهم، وقد أشار إلى ذلك الصفدي حين قال: [أمَّا فنّ التورية فما تنبّه لمحاسنه لما تيقن، وتيقظ، وتحرَّى، وتحرَّز، وتحفَّد[١]، وتحفَّظ إلا المتأخرون من الشعراء والكتَّاب، ومن تضلّع بالعلوم، وتطلع في كل باب][٢]، ووافقه في ذلك ابن حَجَّة الحَمَويّ؛ حيث قال: [ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب، ولعمري إنهم بذلوا الطاقة في حسن سلوك الأدب إلى أن دخلوا إليه من باب].[٣]

ومن بديع ما ذُكر في التورية من شعر المتنبِّي قوله:

برغم شبيبٍ فارق السيف كفُه ... وكانا على العِلَّاتِ[٤] يصطحبانِ

كأن رقاب الناس قالت لسيفه ... رفيقك قيسي وأنت يماني[٥]

حيث ورَّى أبو الطيِّب عن سيف شبيب بالرجل المنسوب إلى اليمن، فظاهر قوله (يماني) أنه رجل منسوب إلى اليمن، وهو المعنى القريب غير المقصود، ومراده البعيد الدلالة على السيف؛ لأن كلمة يماني من أسمائه؛ حيث يُنسَب النَّصل الجيِّد إلى اليمن.

---

(١) تحفَّد: أسرع.

(٢) في كتابه: فض الختام عن التورية والاستخدام. ص ٤٢.

(٣) خزانة الأدب ٤٠/٢.

(٤) حوادث الدهر.

(٥) البيتان من (الطويل) لأبي الطيِّب المتنبِّي في ديوانه ٢٣٨/٢. وشبيب المذكور بالبيتين هو شبيب العقيلي كان من قوم يعرفون بالمستأمنة استأمنوا إلى سيف الدولة، وكانوا قبله مع القرامطة. وولي شبيب معرة النعمان دهراً طويلًا، ثم سار إلى مصر، ورأى أن يخرج على كافور، واجتمعت إليه طائفة، وهجم بها دمشق ومعه عسكر. ومعنى الأبيات: أن السيف فارقَ شبيباً على رغم منه، بعد أن كان لا يفارقه، وكانا مصطحبين على كل حال، وكأن رقاب الناس اللذين قتلهم شبيب بسيفه قد نادت سيفه لكثرة قطعه إياها وكأنها قالت إغراء بينه وبين سيفه ليفترقا: شبيب الذي يصاحبك قيسي وأنت يمني، وقد كان بين قيس واليمن تنازع واختلاف، ففارقه سيفه لما علم أنه مخالف له في الأصل. والشاهد في الأبيات: التورية عن السيف برجل منسوب إلى اليمن. انظر: اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي، المؤلف: أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ)، المحقق: محمد سعيد المولوي، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م. ص ١٤٢٢.

ومنه ما نُقل عن معارضة أحمد شوقي لحافظ إبراهيم، وهما النجمان الساطعان في سماء الشعر؛ حيث قال شاعر النيل مُداعِبًا أمير الشعراء:

يقولون إن الشوق نار ولوعة .... فما بال "شوقي" أصبح اليوم باردًا

وقد ذكر في هذا البيت لفظ: (شوقي) الذي يحتمل معنيين؛ أحدهما قريب غير مقصود وهو نزوع النفس إلى رؤية المحبوب، والمعنى الآخر بعيد مقصود وهو التورية عن اسم الشاعر أحمد شوقي.

وقد ردّ عليه أمير الشعراء بأبيات قال في نهايتها:

أودعتُ إنسانًا وكلبًا وديعةً .... فضيَّعها الإنسان والكلب "حافظ"

حيث عارض بهذا البيت شعر حافظ إبراهيم بنفس أسلوبه؛ فورَّى عن اسم (حافظ) بالمعنى القريب غير المقصود وهو حفظ الوديعة.

وعلى الرغم من أهمية التورية، ودورها البلاغي البديع، إلا إنه لا يحسُنُ بلاغيّاً استخدامها إلاَّ إذا دعا داعٍ بلاغي يقتضيه حال المتلقّي، وقد ذكر ابن حبنَّكة الميداني من هذه الدواعي في كتابه: (البلاغة العربية): إخفاء المراد عن العامة وإشعار الخاصة من طرفٍ خفي، والتعبير عن المقصود بكلام يتأتَّى معه الإنكار عند الحاجة إليه، واختبار ذكاء المتلقّي والتأثير في نفسه بما يُعْجِبُه من أداءٍ فنّيّ يستخدم فيه الأسلوب غير المباشر حتى الإلغاز، إلى غير ذلك من الدواعي. كما نبَّه على أنه ليس بالضرورة أن كلّ كلمة لها معنًى قريب، ولها معنًى بعيد على وجه الحقيقة أو المجاز يحْسُنُ استخدامها، وقَصْدُ المعنى البعيد بها على سبيل التورية، دون مراعاة أو ملاحظة داعٍ بلاغي يُقْصَد لدى البلغاء الفطناء[1]؛ لذلك كانت التورية من أعزّ الفنون البلاغية، وأروعها؛ فلا يتقن صنعتها غير الحاذق البليغ.

---

(١) البلاغة العربية، لابن حبنّكة الميداني. ٣٧٤/٢.

المبحث الثالث

أثر التورية في فهم معاني القرآن الكريم

نزل القرآن الكريم على إمام المرسلين – صلى الله عليه وسلم – بأبلغ لغة، وأعظم بيان، وقد تحدى ببلاغته وإعجازه فصحاء العرب وهم أساطين البلاغة، الذين بلغوا حد التباري بصنعتهم اللغوية في أسواق عقدوها للشعر والخطابة، فكانت اللغة هي مدعاة فخرهم، ومناط تباهيهم، ثم جاءهم القرآن الكريم متحديًا بمنطقهم وحروفهم، معجزًا بأفانين بلاغتهم، فبلغ في نفوسهم غاية لا تدرك من التأثير والإعجاز، حتى قال عنه الوليد بن المغيرة رأس الكافرين وهو أحد أقحاح اللغة الصناديد: [إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليَعلو وما يُعلَى، وإنه ليحطم ما تحته].(١)

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠. ٥٥٠/٢ رقم ٣٨٧٢، برواية عكرمة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، في سبب نزول قول الله تعالى: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} المدثر: ١١، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه». وأخرجه البيقهي في شعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م. ٢٨٧/١ رقم ١٣٣. والواحدي في أسباب نزول القرآن، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، المحقق: كمال بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ. ص ٤٦٨ ق ٨٤٢. جميعهم برواية عكرمة عن ابن عباس -رضي الله عنهما-.

وإذا كان القرآن الكريم قد نزل بلسان عربي مبين، فقد تنوعت ألوان تصريف البيان في الذكر الحكيم على تنوع أساليب العرب في لغتهم التي نزل بها القرآن الكريم، وكانت التورية أحد هذه الألوان، بل إن السيوطي قد عدّها من أشرف أنواع البديع؛ وذهب بعض العلماء إلى أن التورية من أكثر الأساليب البلاغية استعمالًا في تأويل متشابهات القرآن الكريم؛ لاختصاصها في إيصال المعنى البعيد إلى المتدبّر –الذي يُنعِم نظره في كتاب الله تعالى– دون سواه، كما قال السكاكي: [أكثر متشابهات القرآن تورية][(١)]، وهذه هي طريقة القرآن الكريم في الخطاب بأسلوب غاية في الإعجاز والإحكام؛ جريًا على مقتضيات اللغة العربية وأساليبها، ولعل السكاكي يقصد بمقولته التورية بالمعنى العام لأن المجاز قريب منها، أو لعله أراد المبالغة تنبيهًا على دور التورية الهام في توجيه المتشابهات. وقد قال الله تعالى: { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}[(٢)]، فالآيات المُحكمات هي التي أحكمت عبارتها بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه، والمُتَشابِهاتٌ هي المشتبهات المحتملات، وقوله: {هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} أي: أصل الكتاب تحمل المتشابهات عليها وتردّ إليها[(٣)]، وهذا هو الأصل الذي حمل السكاكي على القول بأن أكثر متشابهات القرآن من قبيل التورية؛ حيث يُحمل المتشابه على المحكم.[(٤)]

---

(١) نقله عنه السبكي في: عروس الأفراح ٢/٢٤٥.
(٢) سورة آل عمران الآية ٧.
(٣) الكشاف ١/٣٣٧، ٣٣٨.
(٤) وقد ذكر الباقلاني في كتابه: (الانتصار للقرآن) أن المحكم هو الذي يعرف المرادُ به من نفس ظاهره من غير تأويلٍ ولا نظرٍ واجتهادٍ وردٍ له إلى غيره، وسمّي محكمًا لإحكام النظم، وتضمنه للمعنى الصحيح من غير اختلافٍ، أما المتشابه فهو كلُّ ما أشكلَ والتبسَ المرادُ به، واحتيجَ في معرفة معناهُ إلى طلب التأويل، وإنما سُمي متشابها لاشتباه معناه والتباسه بغيره عند من لم يعرفه ولم يوف النظر حقّه. ينظر: الانتصار للقرآن، المؤلف:

ومن أمثلة المُحكم، قوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ}[١]، وقوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً}[٢]، ونحو ذلك؛ حيث دلّ ظاهر اللفظ على المعنى دون نظر أو اجتهاد، ومن أمثلة المتشابه، قوله تعالى: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}[٣]، وقوله: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}[٤]، ونحو ذلك، فهذه الآيات ونظائرها مما يشتبه معناه ويلتبس بغيره؛ ولا يعرف إلا بعد نظر وتأمُّل، والتورية هي الأسلوب البلاغي الأنسب في توجيه هذه المتشابهات؛ حيث يورَّى عن المعنى البعيد المقصود بالمعنى القريب غير المقصود، فيورّى باليد المذكورة في الآية الأولى عن معنى القوة والنصرة، وقد فسّرها الرازي بقوله: [فيه وجهان، أحدهما: يد الله بمعنى نعمة الله عليهم فوق إحسانهم إلى الله، وثانيهما: يد الله فوق أيديهم أي نصرته إياهم أقوى وأعلى من نصرتهم إياه، يقال: اليد لفلان، أي الغلبة والنصرة والقهر. واليد كناية عن الحفظ، فوضع اليد فوق الأيدي صار سببًا للحفظ على البيعة][٥]، ويورّى بالنفس في الآية الثانية عن معنى الغيب أو الذات، قال السيوطي: [ووجه بأنه خرج على سبيل المشاكلة[٦] مرادًا به الغيب؛ لأنه مستتر كالنفس. وقال

محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي (المتوفى: ٤٠٣هـ)، تحقيق: د. محمد عصام القضاة، الناشر: دار الفتح - عَمَّان، دار ابن حزم – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م. ٧٨٠/٢، ٧٨١.

(١) سورة الفتح الآية ٢٩.

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٢.

(٣) سورة الفتح الآية ١٠.

(٤) سورة المائدة الآية ١١٦.

(٥) مفاتيح الغيب ٧٣/٢٨. بتصرف يسير.

(٦) المشاكلة في اللغة: هي المماثلة، وهي في المصطلح: ذكر الشيء بلفظ ما يصاحبه، أو بغير لفظه لموافقة القرائن ومشاكلتها، كآية الباب، وكقوله تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} الشورى: ٤٠، فالجزاء عن السيئة في الحقيقة غير سيئة، والأصل: وجزاء سيئة عقوبة.

السهيلي: النفس عبارة عن حقيقة الوجود دون معنى زائد، وقد استعمل من لفظة النفاسة والشيء النفيس، فصلحت للتعبير عنه سبحانه وتعالى][1]. وهذا الذي ذُكر آنفًا إنّما هو الإحكام الخاص، والتشابُه الخاص.[2]

وقد شاء مُنزِل هذا الكتاب المُعجِز أن يضمنه من الآيات ما كان النظر والتدبُّر هو سبيل الوصول إلى معانيها؛ ليتحقق الأمر بالتفكُّر في آيات الله في قوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}[3]، وقوله تعالى: { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ

ثمرات الأوراق (مطبوع بهامش المستطرف في كل فن مستظرف للشهاب الأبشيهي)، المؤلف: ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي (المتوفى: ٨٣٧هـ)، الناشر: مكتبة الجمهورية العربية، مصر. ١٤٠/٢. بتصرف يسير.

[1] الإتقان ١٨/٣.

[2] فالقرآن الكريم باعتبار وضوح الدلالة على المراد أو خفائها يكون بعضه مُحكم وبعضه مُتشابه على نحو ما ذُكر، وهذا هو مناط اختلاف العلماء في تفسيره، وباعتبار آخر فإنَّ القرآن الكريم كله محكم وكله متشابه؛ فكلّه محكم من حيث إحكام النَّظم، وقوة الاتساق، وبلوغ الغاية في الحكمة، وصدق الأخبار، والعدل في الأحكام، قال تعالى: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} سورة هود الآية ١. قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: [أُحكمت آياته نظمت نظمًا رصينًا مُحكمًا لا يقع فيه نقص ولا خلل، كالبناء المحكم المرصف]. الكشاف ٣٧٧/٢. والقرآن كلُّه متشابه من حيث الحُسن، والصدق، والهدى، والنفع، أي: يشبه بعضه بعضًا في إحكامه، وحُسنه، وبلوغه حد الإعجاز في ألفاظه ومعانيه، قال تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا} سورة الزمر الآية ٢٣. قال الرازي: [اعلم أن هذه الآية تدل على أن القرآن كله متشابه]. مفاتيح الغيب ٤٤٦/٢٦. وقال الزمخشري: [{مُتَشَابِهًا} مطلق في مشابهة بعضه بعضًا، فكان متناولًا لتشابه معانيه في الصحة والإحكام، والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق، وتناسب ألفاظه وتناصفها في التخير والإصابة، وتجاوب نظمه وتأليفه في الإعجاز والتبكيت]. الكشاف ١٢٣/٤. وهذا هو الإحكام العام، والتشابه العام. يُنظر: مناهل العرفان ٢٧١/٢.

[3] سورة النساء الآية ٨٢.

أَقْفَالُهَا}[1]، ويتفاضل العالم على الجاهل، والمتدبّر على القارئ الذي لا يعلم سوى الظاهر، وقد تجلّت قدرة الله –عز وجل– في إجراء الآيات المتشابهة على فنون البلاغة العربية، ولعبت التورية دورًا بالغ التأثير في فهم معاني القرآن الكريم، وكشفت اللثام عن أسرار المعاني الإلهية للألفاظ التي يتجاذبها أكثر من معنى، وكانت التورية في مواضعها التي اختارها الحكيم العليم لها هي الأداة البلاغية الأنسب، والأدق في التوجيه إلى المعنى المراد دون سواها، قال الزمخشري: [ولا نرى بابًا في البيان أدقَّ ولا ألطفَ من التورية، ولا أنفعَ ولا أعونَ على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله، وكلام نبيه –صلى الله عليه وسلم–، وكلام صحابته، رضي الله عنهم أجمعين].[2]

ومن أهم الأدوار التي تلعبها التورية في فهم معاني القرآن الكريم، هو دورها في تأويل بعض الصفات الإلهية التي قد يوهم النص القرآني بظاهر دلالته مشابهةً بين الله –عز وجل– وبعض خلقه، فيَجِبُ تَنْزيهُ الباري تَعالى عن ذلك الظَّاهِرِ المُسْتَحيلِ عَقْلًا وشَرْعًا؛ لذا جاءت التورية لتثبت أن المعنى الظاهر القريب إلى الأذهان لهذه الصفات يستحيل أن يُقصد، وأن المعنى البعيد هو المقصود لا سواه. فكلُّ نَصٍّ مِن كِتاب الله تعالى، أو سُنَّة رسوله –صلى الله عليه وسلم–، أَوهَمَ باعْتِبارِ ظاهِرِ دَلالتِه تَشْبيهًا لله تَعالى بالحَوادِثِ ذهب فيه العلماء مذهبين: إمّا التأويل إلى معنى آخر غير الظاهر يليق بجلال الله تعالى وكماله، أو تفويض العلم إلى الله –عز وجل– مع تنزيهه تعالى عن كل نقص لا يليق به، وإلى ذلك أشار الإمام اللقّاني في منظومته الفريدة (جوهرة التوحيد)؛ حيث قال:

---

(1) سورة محمد الآية ٢٤.

(2) ذكره السيوطي في الإتقان في علوم القرآن، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م. ٢٨٥/٣.

وكُلّ نصٍ أوهَمَ التشبيهَ ... أوِّله أو فوِّض وَرُم تنزيهًا
فكلّ نصٍ للحدوث دلَّ ... احمل على اللفظ الذي قد دَلَّا[1]

ومن أمثلة ذلك: ما ورد من التورية في قول الله تعالى: { قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}[2]؛ حيث تضمّن قوله: { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} معنيين؛ أحدهما قريب، وهو اليد الجارحة، والآخر بعيد، وهو القُدرة، ولا شكّ أن المعنى البعيد هو المقصود لا سواه؛ لاستحالة وصف الله –عز وجل– بالجارحة وهي من صفات الحوادث، والله تعالى يستحيل عليه مشابهة خلقه؛ لذا كانت التورية في هذا الموضع هي الأسلوب البلاغي الأنسب، والأدلّ على المعنى المراد بلا منازع.

ومن بديع التورية: ما ورد في قوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}[3]؛ حيث تضمّنت الآية معنيين؛ أحدهما قريب، وهو هلاك كل شيء في الكون سوى وجه الله –عز وجل– فقط، والمعنى الآخر بعيد، وهو أن الوجه كناية عن الذات الإلهية؛ إذ يستحيل عقلًا وشرعًا اعتقاد هلاك ذات الله تعالى وبقاء وجهه فقط، ففي ذلك ما فيه من النقص، وإثبات الجارحة، والمشابهة للحوادث، وهذا بلا شك محال على الله تعالى؛ لذا كان أسلوب التورية هو الأنسب، والأوجب لتنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته. قال الرازي: [المراد بوجهه ذاته، فهذا يدل على أنه تعالى استثنى ذات نفسه من قوله كل شيء والمستثنى

---

(1) متن جوهرة التوحيد، المؤلف: برهان الدين إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقّاني، (المتوفى ١٠٤١هـ)، ضبطه وحققه: رامي بن محمد جبرين سلهب، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى المحققة: ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م، ص ١٠.
(2) سورة ص الآية ٧٥.
(3) سورة القصص الآية ٨٨.

يجب أن يكون داخلا تحت المستثنى منه].[١]

ومما ورد من بديع التورية في القرآن الكريم: ما جاء في (سورة يوسف) في قوله تعالى: {قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ}[٢]؛ حيث جاءت هذه المقالة على لسان الحاضرين عند نبي الله يعقوب –عليه السلام– من أهله، وقد احتمل لفظ (الضلال) معنيان، أحدهما قريب وهو الذهاب عن الصواب، والآخر بعيد وهو الحُب، وقد ورّى القائلون بالمعنى القريب غير المراد عن المعنى البعيد المراد، والمعنى: تالله إنك لفي حبك القديم ليوسف لا تنساه ولا تذهل عنه.[٣]

ومن التورية قوله تعالى: {وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ}[٤]؛ حيث احتمل لفظ: {وَالنَّجْمُ} معنيان، أحدهما قريب غير مراد وهو النجم المعروف في السماء، ويرشحه له ذكر الشمس والقمر في الآية السابقة لهذه الآية، وهي قوله تعالى: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ}[٥]، والمعنى الآخر بعيد وهو ما لا ساق له من النبات، وهو المعنى المقصود في الآية[٦]، قال الرازي في ترجيح المعنى البعيد على القريب من المعنيين المذكورين: [النجم ماذا؟ نقول: فيه وجهان، أحدهما: النبات الذي لا ساق له، والثاني: نجم السماء، والأول أظهر؛ لأنه ذكره مع الشجر في مقابلة الشمس والقمر، ذكر أرضين في مقابلة سماوين، ولأن قوله: يسجدان يدل على أن المراد ليس نجم السماء].[٧]

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٩٨/١٢.
(٢) سورة يوسف الآية ٩٥.
(٣) يُنظر: مفاتيح الغيب ٥٠٨/١٨، الإتقان ٢٨٦/٣.
(٤) سورة الرحمن الآية ٦.
(٥) سورة الرحمن الآية ٥.
(٦) ينظر: الإتقان ٢٨٧/٣.
(٧) مفاتيح الغيب ٣٤١/٢٩.

وقال في تفسير الآيتين المذكورتين: [الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر وغيرها من الآيات إشارة إلى أن بعض الناس إن لم تكن له النفس الزكية التي يغنيها الله بالدلائل التي في القرآن، فله في الآفاق آيات منها الشمس والقمر].[1]

ولعل النقاط التالية تلخِّص أثر التورية في فهم معاني القرآن الكريم:

١. تتيح التورية فهم الآية الكريمة بأكثر من معنى، بما يؤكد عمق النص القرآني، ويفتح بابًا لتعدد المعاني وتنوعها، فيثري فهم معانيه، ويعزز التفاعل معه والتأثر به.

٢. يحفز استخدام أسلوب التورية التفكير والتدبُّر لاكتشاف المعاني الخفية، وإمعان النظر والتأمُّل في حِكَم الله تعالى وأحكامه، ولعل هذا سرّ تمكن هذا الأسلوب البلاغي من النفوس.

٣. تُضفي التورية جمالًا فنيًا على النص القرآني من خلال الجمع بين المعاني الظاهرة والخفية، بما يُبرز الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ويبعث التشويق على اكتشاف المعاني الخفية، وينفي الملل عن المتدبّر في هذا الكتاب المعجِز الذي لا تنقضي عجائبه.

٤. تعمل التورية من خلال الجمع بين المعاني المتعددة على توسيع دائرة الفهم، وتأكيد صلاحية القرآن الكريم لكل زمان ومكان؛ إذ تتيح للمتدبّر فهم النص القرآني بطرق تتناسب مع الأزمان والأماكن المختلفة، وفق ما يقتضيه السياق.

٥. تُسهم التورية في التأثير على النفس البشرية بطرق غير مباشرة؛ فبها يتم إيصال الرسائل الإلهية الدينية والأخلاقية إلى الناس بأسلوب أكثر نفاذً،

---

[1] مفاتيح الغيب ٣٣٩/٢٩.

وأعمق أثرًا، وأطول أمدًا، فالرسائل المغلفة بالتورية التي تصل إلى المخاطَب بعد نظر وتأمُّل تكون أوقع في النفس، وأدعى إلى التذكُّر من غيرها.

٦. تعكس التورية قدرة القرآن الكريم على تحدي البلغاء والفصحاء وتعجيزهم، وذلك من خلال استخدام لغة غنية ومعقدة تظل عبر العصور قابلة للفهم والاكتشاف، وقد أبرز القرآن الكريم جمال اللغة العربية، وسموّها، واتساعها؛ إذ وسعت القرآن الكريم لفظًا ومعنى.

٧. يدفع استخدام أسلوب التورية في القرآن الكريم المفسرين إلى تعميق دراستهم للآيات، واستيعاب المعاني بشكل أوسع وأعمق بما يُثري التفاسير، ويعزز غناها وتنوعها.

٨. يعمّق استخدام الأساليب البلاغية في النصوص القرآنية الأثر الوجداني لدى المخاطَب؛ فيتعزز ارتباطه بتلك النصوص، وتتمكّن من قلبه أيّما تمكُّن، فتكون مدعاة إلى الامتثال والخضوع لما تضمّنته الآيات الكريمة من أوامر إلهية.

٩. يميّز استخدام التورية بين المخاطبين، فيتفاضل العالم على الجاهل، والمتدبّر على القارئ، وتتفاوت درجاتهم ومنازلهم وفق اجتهادهم في النظر والتأمُّل.

يتبيّن مما سبق أن التورية في القرآن الكريم لم تُذكر عبثًا، بل إن لها وظيفةً هامّةً، ودورًا جوهريًّا، وإلى ذلك أشار فضيلة الدكتور/ عبد العظيم المطعني، حين قال: [التورية في القرآن الكريم ذات دور هام؛ لم تُجتلب لتأدية معنى إضافى، أو تحسين عرضى، فعدُّها من البديع فيه تسامح، وأجدر بها أن تلحق بأقسام البيان إنصافاً ووصفاً لكل فن فى موضعه].[١]

---

[١] خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، (رسالة دكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى)، المؤلف: عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني (المتوفى: ١٤٢٩هـ)، الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م. ٤٢٤/٢. بتصرف.

المبحث الرابع

مناهج المفسرين في التعامل مع التورية في القرآن الكريم

اشتملت سور القرآن الكريم على ألوان شتى من الأساليب البلاغية، كل منها له رونقه، وفائدته في موضعه الذي اختاره الله تعالى له بحكمته؛ حيث أضفى كل أسلوب جمالًا فنيًا بلاغيًا، وعُمقًا دلاليًا لم يكن ليضفيه أسلوب غيره في موضعه، بما يعكس الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ويبرز الحكمة الإلهية في نظمه، ومن تلك الأساليب البلاغية (أسلوب التورية) الذي ورد في بعض المواضع من كتاب الله تعالى، وتفاوتت مناهج المفسرين في التعامل مع هذا الأسلوب البلاغي، فنرى كثيرًا منهم يغفل ذكر هذا الأسلوب انطلاقًا من منهجه في التفسير الذي لا يتحرَّى تتبُّع مواطن البلاغة القرآنية وإبراز أوجهها، ومنهم من انتهج التفسير البلاغي كالزمخشري، وابن عاشور، فعمدوا إلى كل موضع وردت فيه التورية فنبَّهوا عليها.

من ذلك قول الزمخشري عند تفسيره لقول الله تعالى في (سورة يوسف): { فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} [1]: [قوله: {إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف].[2]

وكقول ابن عاشور عند تفسيره لقول الله تعالى: {أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) }[3]: [في وصفهم بالمنذرين ترشيح للتمثيل، وتورية في اللفظ؛ لأن المشبهين منذرون من

---

(١) سورة يوسف الآية ٧٠.
(٢) الكشاف ٤٩٢/٢.
(٣) سورة الصافات الآيتان ١٧٦، ١٧٧.

الله بالعذاب. والذين يسوء صباحهم عند الغارة هم المهزومون فكأنه قيل: فإذا نزل بساحتهم كانوا مغلوبين،... (إلى أن قال): واعلم أن في اختيار هذا التمثيل البديع معنى بديعا من الإيماء إلى أن العذاب الذي وعدوه هو ما أصابهم يوم بدر من قتل وأسر على طريقة التورية][1]، كما أحسن ابن عاشور حين قال في تفسير قول الله تعالى: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣)}[2]: [ومقارنة الاسمين الدالين على نوعين من أماكن الأرض، ليتأتى محسن مراعاة النظير، ومحسن التورية، وليناسب (سينين) فواصل السورة][3]. ولعل في التورية في هذا الموضع إيماءً إلى وحدة العقيدة بالإشارة إلى وحدة بلدان المسلمين؛ حيث ورّى عن أماكن بعينها وهي التي يوجد فيها التين والزيتون، وجبل الطور، وعطف عليها الإشارة إلى البلد الحرام، وفي ذلك تنويه إلى مهبط الرسالات السماوية في فلسطين، وسيناء، ومكة المكرمة، إيماءً إلى رسالة موسى، وعيسى، ومحمد عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتمّ التسليم.

وربما عبَّر بعض المفسرين عن التورية بلفظ التعريض لترادفهما في المعنى، ودليل هذا الترادف –على سبيل المثال– قول الثعلبي عند تفسيره لمعنى لفظ: (التوراة): [هي من التورية وهي كتمان الشيء والتعريض لغيره][4]، ووافقه في ذلك الواحدي؛ حيث قال: [هو من التورية: وهو التعريض بالشيء، وكان أكثر

---

(١) التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م. ١٩٧/٢٣، ١٩٨.

(٢) سورة التين الآيات ١: ٣.

(٣) التحرير والتنوير ٤٢٢/٣٠.

(٤) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، المؤلف: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م. ٨/٣.

التوراة معاريض وتلويحا من غير إيضاح وتصريح][1]، كما أشار الطيبي في حاشيته على الكشاف إلى هذا الترادف عند تفسيره لقول إبراهيم –عليه السلام– لقومه: { إِنِّي سَقِيمٌ }[2]؛ حيث قال: [المراد التعريض، وهو اللفظ المشار به إلى جانب، والغرض جانبٌ آخر، ويسمى تعريضاً لما فيه من التعرج عن المطلوب، يقال: نظر إليه بعُرض وجهه، أي: بجانبه، ومنه المعاريض في الكلام، وهو التورية بالشيء][3]. وقد عرّف الزمخشري التعريض بأنه: [أن تذكر شيئا تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك، فكأنه أمال الكلام إلى عُرض يدل على المقصود، وعُرض الشيء بالضم ناصيته من أي وجه جئته][4]، وهذا بلا شك معنى التورية.

وقد جمع بعض المفسرين بين اللفظين: (التورية والتعريض) في عبارة واحدة، كالقرطبي عند تفسيره لقول إبراهيم –عليه السلام– لقومه: { إِنِّي سَقِيمٌ }[5]؛ حيث قال: [وهذا تورية وتعريض][6]، فربما دلّت الواو عنده على اشتراكهما في الحكم لا على المغايرة؛ فهما وصفان لشيء واحد، وقد صرّح القرطبي نفسه في

---

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور/ أحمد محمد صيرة، الدكتور/ أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور/ عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور/ عبد الحي الفرماوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م. ٤٤٨/١.

(٢) سورة الصافات الآية ٨٩.

(٣) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، المؤلف: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (المتوفى: ٧٤٣ هـ)، مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج، القسم الدراسي: د. جميل بني عطا، المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م. ١٧٩/٢.

(٤) الكشاف ٢٨٣/١.

(٥) سورة الصافات الآية ٨٩.

(٦) تفسير القرطبي ٩٣/١٥.

موضع آخر من تفسيره بمعنى التعريض، وهو مرادف لمعنى التورية؛ حيث قال: [التعريض: ضد التصريح، وهو إفهام المعنى بالشيء المحتمل له ولغيره، وهو من عرض الشيء وهو جانبه، كأنه يحوم به على الشيء ولا يظهره][1].

وقد اتفق أكثر المفسرين على تفسير قول إبراهيم –عليه السلام– لقومه: { إِنِّي سَقِيمٌ }[2] بأنه من قبيل التعريض؛ فالأنبياء جميعهم معصومون، ولا يجوز اعتقاد الكذب في حقهم، وقد تنوعت أوجه تفسير قول إبراهيم –عليه السلام– لقومه: { إِنِّي سَقِيمٌ }[3]، لكن اتفاق جمهور المفسرين على أنه من قبيل التعريض، والمراد التعريض بسقم القلب من كفر قومه وشركهم بالله تعالى، قال الزمخشري: [وقيل: أراد: إنى سقيم النفس لكفركم]، [والصحيح: أن الكذب حرام إلا إذا عرّض وورّى، والذي قاله إبراهيم –عليه السلام–: معراض من الكلام، ولقد نوى به أن من في عنقه الموت سقيم][4]، وقال ابن عاشور: [تسمية هذا الكلام كذبًا منظور فيه إلى ما يفهمه أو يعطيه ظاهر الكلام، وما هو بالكذب الصراح بل هو من المعاريض، أي أني مثل السقيم في التخلف عن الخروج، أو في التألم من كفرهم][5].

وكذلك الحال في قوله –عليه السلام– لقومه بعد أن حطّم أصنامهم: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ}[6]، فهذا كله من قبيل التعريض والتورية، والمراد التعريض بعجز الأصنام، ولفت أنظار الكافرين من قومه إلى هذه الحقيقة، والتعريض باب من أبواب الاستدلال على الحق، وفيه من السعة

(١) تفسير القرطبي ١٨٨/٣.
(٢) سورة الصافات الآية ٨٩.
(٣) سورة الصافات الآية ٨٩.
(٤) الكشاف ٤٩/٤.
(٥) التحرير والتنوير ١٤٣/٢٣.
(٦) سورة الأنبياء الآية ٦٣.

ما يستغنى به عن الاضطرار إلى الكذب، وقد رُوي عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: "إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب"(١)، وقال الرازي في توجيه قول إبراهيم –عليه السلام–: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ}(٢): [قول كافة المحققين أنه ليس بكذب، وذكروا في الاعتذار عنه وجوها، أحدها: أن قصد إبراهيم –عليه السلام– لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم](٣). وقد آتى أسلوب التعريض الذي استخدمه نبي الله إبراهيم –عليه السلام– أُكُلَه؛ حيث انتبه الكافرون إلى بُطلان شركهم، وعجز أصنامهم عن دفع الضرر عن أنفسها، فضلًا عن نفع إنسان ممن يعبدونها أو ضرّه، وقد سجّل عليهم القرآن الكريم ذلك؛ حيث قال تعالى: { فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م. ٤٤٦/٦ برقم ٤٤٥٨، موقوفًا على عمران بن حصين -رضي الله عنه-؛ حيث قال: [هذا هو الصحيح موقوفا]، ثم عقب عليه بقوله: [وقد رواه داود بن الزبرقان، عن ابن أبي عروبة، عن قتادة، عن زرارة ابن أبي أوفى، عن عمران، مرفوعا. وروي من وجه آخر ضعيف مرفوعا]، وقد أخرجه مرفوعًا بالسند المذكور ابن الأعرابي في معجمه: معجم ابن الأعرابي، المؤلف: أبو سعيد بن الأعرابي أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم البصري الصوفي (المتوفى: ٣٤٠هـ)، تحقيق وتخريج: عبد المحسن بن إبراهيم بن أحمد الحسيني، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م. ٥١٣/٢ برقم ٩٩٣. وبوّب البخاري بابًا في صحيحه بعنوان: [باب المعاريض مندوحة عن الكذب] ٤٦/٨.

(٢) سورة الأنبياء الآية ٦٣.

(٣) مفاتيح الغيب ١٥٥/٢٢، ١٥٦.

(٦٥) }[1]، قال الآلوسي: [فرجعوا إلى أنفسهم فتفكروا وتدبروا وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له فكيف يستحق أن يكون معبودا. {فَقَالُوا}: أي قال بعضهم لبعض فيما بينهم: {إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ} أي بعبادة ما لا ينطق].[2]

وقد صرَّح كثير من المفسرين في مقدمات تفاسيرهم بانتهاجهم التنبيه على البلاغة القرآنية في مواضعها، وإن لم يكونوا قد انتهجوا التفسير البلاغي المتتبِّع لبيان الأوجه البلاغية في القرآن الكريم، لكن تقديرهم لقيمة الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم قد دفعهم إلى العروج على مواطن البلاغة القرآنية قدر استطاعتهم؛ لتكون سبيلهم إلى فهم النص القرآني والوصول إلى مراد الله تعالى، ولا يتسنَّى لهم ذلك إلا بتذوق مواطن البلاغة فيه، فهؤلاء قد تعرَّضوا لبيان التورية القرآنية في بعض مواضعها من كتاب الله تعالى؛ كما قال الطيبي عند تفسيره لقول إبراهيم –عليه السلام–: { فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[3]: [عصيان الله المراد منه عبادة الأصنام لدلالة السياق، فعقبه بقوله: {فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[4]، لغاية رحمته ورأفته على أمته، وهو من (أسلوب التورية)، وهو أن يطلق لفظ له معنيان: قريب وبعيد، فيراد البعيد منهما][5]. وقد فسّر الرازي هذه الآية الكريمة بقوله: [من تبعني في ديني واعتقادي فإنه مني، أي جار مجرى بعضي لفرط اختصاصه بي وقربه مني،

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان ٦٤، ٦٥.
(٢) روح المعاني ٦٤/٩.
(٣) سورة إبراهيم الآية ٣٦.
(٤) سورة إبراهيم الآية ٣٦.
(٥) فتوح الغيب= حاشية الطيبي على الكشاف ٣١٥/٧.

ومن عصاني في غير الدين فإنك غفور رحيم][1]، وقال ابن عاشور: [المعنى: ومن عصاني أفوض أمره إلى رحمتك وغفرانك. وليس المقصود الدعاء بالمغفرة لمن عصى، وهذا من غلبة الحلم على إبراهيم –عليه السلام–، وخشية من استئصال عصاة ذريته، ...، وسوق هذه الدعوة هنا للتعريض بالمشركين من العرب بأنهم لم يبروا بأبيهم إبراهيم –عليه السلام–، وإذ كان قوله: {فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} تفويضًا لم يكن فيه دلالة على أن الله يغفر لمن يشرك به].[2]

وعلى الرغم من نُدرة تنبيه المفسرين في تفاسيرهم على مواطن التورية كأسلوب من أساليب البلاغة القرآنية، لكن جلّهم –من حيث العموم– مهما اختلفت اتجاهاتهم في التفسير ومشاربهم قد أجمعوا على أن البلاغة وجه من وجوه الإعجاز القرآني، بل هو الوجه الذي لازم القرآن الكريم في كل سوره وآياته، وعمد كثير من البلاغيين إلى كتاب الله تعالى لاستخراج ما فيه من كنوز بلاغية، وجعلوا من مؤلفاتهم في هذا الفن وسيلة لفهم النص القرآني.

نلمح مما سبق عناية المفسرين بكتاب الله تعالى كل حسب منهجيته في التفسير، وإجماعهم على أن الإعجاز البياني هو أول وجوه الإعجاز في كتاب الله تعالى؛ حيث خاطب أهل العربية بلغتهم فتحداهم وأعجزهم، كما نلمس قِلّة حديث المفسرين عن أسلوب التورية البلاغي، وقد أرجع فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد أبو موسى ذلك إلى قِلّة ورود التورية كمحسّن بديعي في القرآن الكريم؛ حيث قال: [هذا اللون البديعي لم يكثر في القرآن الذي جرى أسلوبه على أعراق البلاغة الأصيلة، متسمًا بوضوح الفطرة الإنسانية الصادقة][3].

---

(١) مفاتيح الغيب ١٠٢/١٩.

(٢) التحرير والتنوير ٢٤٠/١٣.

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، المؤلف: محمد محمد أبو موسى، الناشر: مكتبة وهبة- القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، ص ٥٨٦، ٥٨٧.

معلِّلًا بذلك قلة حديث الزمخشري في تفسيره (الكشاف) عن التورية، بل إنه لم يعزُ إليه ذكرها سوى في موضع (سورة يوسف) المذكور آنفًا.

وعلى الرغم من قِلّة مواضع التورية في القرآن الكريم إلا أنها في مواضعها هنالك تعكس بلاغة التعبير القرآني في استخدام الكلمات بمرونة تامة؛ بحيث يُعرف المعنى القريب بمجرد اللفظ به، ثم يتوجّه ذهن المتلقي إلى فهم المعنى البعيد بالتأمّل والتدبّر، وقد كانت التورية في هذه المواضع القليلة الأداة البلاغية الأوفق والأنسب؛ حيث خرجت العبارة متضمّنة المعنيين المذكورين بأوجز لفظ وأبلغه.

الخاتمة

الحمد لله الفاتح لما أُغلق، والهادي إلى سواء السبيل، فبعد أن أنعمت النظر في بعض أوجه البلاغة القرآنية المعجِزة، ونهلت من معين التورية البديعية، وارتويت من نبعها الصافي، خلصت إلى بعض النتائج والتوصيات، أجملها في النقاط التالية:

أهم النتائج:

١ـ أسلوب التورية من الأساليب البلاغية التي تفتح أمامنا بابًا رَحبًا لتنوّع المعاني، وتعدد الدلالات، لكن وروده في كتاب الله تعالى من القِلّة بمكان.

٢ـ تعدّ التورية الأسلوب البلاغي الأنسب والأوفق في مواضعها التي اختارها الله تعالى لها في كتابه الكريم؛ إذ تؤدي دورًا لا يمكن لأسلوب غيره أن يؤديه في الدلالة على عُمق معاني الآيات القرآنية مع وجازة اللفظ.

٣ـ تتنوّع التورية البلاغية إلى أنواع أربعة، هي: التورية المجرّدة، والمرشّحة، والمبيّنة، والمهيّأة، ومعرفة هذه الأنواع الأربعة تُسهم في تعزيز قدرة المتلقّي على تذوّق فنّيات أسلوب التورية، ودقة الحكم على النصوص، وتحفيز الفكر النقدي لديه، مما يُتيح له تجربة فكرية، ولغوية متكاملة وثرية.

٤ـ الاشتغال بالإعجاز البلاغي للقرآن الكريم درسًا وإبانةً من أدقّ أسرار تمكُّن المفسّر من أدواته التفسيرية؛ فلا يتسنّى للمشتغل بتفسير كتاب الله تعالى أن يعرج على تفسير آية دون التعرّف على ما تحتويه من أوجه بلاغية، تُلقي بظلالها على المعاني فتُسهم في فهمها، والتأثُّر بها.

٥ـ لا يملّ المتأمّل في كتاب الله تعالى –الذي لا تفنى عجائبه– من استخراج دُرر المعاني، ولآليء الدلالات، وتذوّق عظمة النظم القرآني، وروعته التي تُجلي إعجازه، وتُبرز جلاله وجماله.

٦ـ يعكس استخدام أسلوب التورية في التعبير القرآني دقّة النسيج القرآني، وترابط ألفاظه، وعُمق معانيه، فكلّ حرف، أو لفظة، أو عبارة قد وضعت في أحكم موضع لتُضفي معنى أراده الله تعالى بحكمته البالغة، فلا يستغنى عن لفظة منه أو حرف، ولا وجود لزائد غير مقصود فيه؛ فإنه قد نُسج على منوال الحق.

٧ـ تعددت مناهج المفسرين في التعامل مع التورية كأسلوب بلاغي، كلّ حسب منهجيته، واتجاهه التفسيري.

أهم التوصيات: أوصي المشتغلين بالدراسات القرآنية بالاعتناء بدراسة الأساليب البلاغية الواردة في القرآن الكريم؛ للوقوف على وجوه إعجازه البلاغي، وإبرازها.

أهم المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. الإتقان في علوم القرآن، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
٣. الانتصار للقرآن، المؤلف: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي (المتوفى: ٤٠٣هـ)، تحقيق: د. محمد عصام القضاة، الناشر: دار الفتح– عَمَّان، دار ابن حزم– بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ– ٢٠٠١م.
٤. الإيضاح في علوم البلاغة، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: ٧٣٩هـ)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة.
٥. البلاغة العربية، المؤلف: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ)، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.
٦. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، المؤلف: محمد محمد أبو موسى، الناشر: مكتبة وهبة– القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ– ١٩٨٨م.
٧. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.
٨. الجامع لأحكام القرآن= تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.
٩. خزانة الأدب وغاية الأرب، المؤلف: ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري (المتوفى: ٨٣٧هـ)، المحقق: عصام شقيو، الناشر: دار ومكتبة الهلال–بيروت، دار البحار– بيروت، الطبعة: الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م.

١٠. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، (رسالة دكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى)، المؤلف: عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني (المتوفى: ١٤٢٩هـ)، الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
١١. صحيح البخاري= الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
١٢. فض الختام عن التورية والاستخدام في علم البديع، المؤلف: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، (المتوفى: سنة٧٦٤هـ)، دراسة وتحقيق: محمد عايش، الناشر: أروقة- سلطنة عمان- ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.
١٣. فوات الوفيات، المؤلف: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (المتوفى: ٧٦٤هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٧٣م.
١٤. لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر- بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٤هـ.
١٥. متن جوهرة التوحيد، المؤلف: برهان الدين إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقّاني، (المتوفى:١٠٤١هـ)، ضبطه وحققه: رامي بن محمد جبرين سلهب، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى المحققة: ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.
١٦. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠هـ.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات
المقدمة
أهمية الموضوع
أسئلة البحث
منهجية البحث
إجراءات البحث
خطة البحث
المبحث الأول: مفهوم التورية وما يتعلق به:
١ـ تعريف التورية لغة واصطلاحًا
٢ـ أنواع التورية
٣ـ الفرق بين التورية والاستخدام
٤ـ الفرق بين التورية والكناية
٥ـ علاقة التورية بالمجاز
المبحث الثاني: أهمية التورية ودورها في البلاغة العربية
المبحث الثالث: أثر التورية في فهم معاني القرآن الكريم
المبحث الرابع: مناهج المفسرين في التعامل مع التورية في القرآن الكريم
الخاتمة
فهرس لأهم المصادر والمراجع